اللغوف الهندية

تعريب القس بطرس عزّو الكلداني البغدادي

انَّ من سرَّح طائر بصره في بلاد الشرق يرى فيها من غرائب الامور ما لا يراهُ في غيرها من انحاء المعمور. ولعلّ الاصقاع الهنديَّة وحدها تشتمل على ما يقضي بالعجب العجاب. فانَّ فيها من العادات المألوفة ما تحتار لهُ الألباب

وممَّا قد تميَّزت بهِ تلك البلاد طبقات اهلها التي دعاها الفرنج باسم كَست (castes) يقابلها في العربيَّة لفظة اللفّ جمعها لُغوف. قال صاحب القاموس: «اللفّ بالكسر الصنف من الناس». واللفظة الفرنجيَّة اصلها من اللغة البورتغاليَّة خُصَّت بهذه الطبقات من الهنود. وقد قرأتُ لاحد الرحَّالين فصلًا حسنًا في تعريف هذه اللغوف وخواصّها كتبهُ باللغة الانكليزيَّة بعد ان عاش في الهند مدَّة طويلة وسبر اخبار سكَّانها وفحص عن احوالهم وتحفَّى في السؤال عن اسرارهم فاحببتُ تعريبهُ ليطَّلع اهل بلادنا على ما في تلك النواحي من النحل والملل. قال الكاتب:

اللغوف المشهورة في الهند منذ قديم الزمن اربعةٌ كبار وهي: البراهمة. ثمَّ الكشاتريَّة او الرجاهيَّة. ثمَّ الوَسية او اصحاب الاملاك والتجار. والصُّدرة او الفلاحون والمدَّنون

ولكلّ هذه اللغوف وظائف خاصَّة لا يعانيها الَّا اصحابها. فللبراهمة الكهانة والفرائض الدينيَّة المختلفة. وللكشاتريَّة الخدمة العسكريَّة مع جميع فروعها. وللوَسية ظارة الاملاك والتجارة وتربية المواشي. وللصدرة الصبوديَّة العموميَّة

وقبل ان نذكر ما يمتاز بهِ كلّ لغةٍ على سواه يحسن بنا ان نعدّد الصفات العموميَّة التي تشمل اللغوف اجمالًا

واعلم اوّلًا انَّ كلّ لغةٍ من هذه اللغوف الاربعة الكبرى يقسم الى لغوف ثانويَّة كثيرة حتى انهُ يصعب على الباحث ان يستقصي عددها بالتدقيق والسبب في ذلك انَّ هذه الاقسام تختلف باختلاف الاماكن فاذا وُجد مثلًا لغةٌ في هذا الاقليم فليس من اللازم اللازب ان يوجد من جنسهِ في اقليم آخر

مثال ذلك البراهمة تراهم في جنوبي الهند يُقسمون الى ثلاثة او اربعة اقسام كبار ويتشعَّب كل قسم منهم الى عشرين شعبة على الاقل. ثمَّ لكلّ شعبة فروقٌ تمتاز بها عن اختها اي امتياز حتى انهُ من المحال ان يختلط الرجل بآخر ان لم يكن من شعبتهِ ولاسيما الزواج فلا يقترن احد ابنتهُ الّا برجل من شعبتهِ

وكذلك يُقسم الكشاتريَّة والوَسية الى اقسام كثيرة وهذه الاقسام الى اقسام أُخرى. وهذان اللفّان قليلا الوجود في الهند الجنوبيَّة غير انَّهما وخصوصًا الكشاتريَّة يكثرون في الهند الشمالية. والبراهمة يزعمون انَّ لغةَ الكشاتريَّة الحقيقي لا وجود لهُ البتة وانَّ العشيرة المسمَّاة بهذا الاسم انَّما هي نسلٌ مختلف عمَّا يدَّعون

ولغةُ الصدرة ايضًا ذو فروع عديدة لا تقلّ عن ١٨ لغًا رئيسيًّا تحتها نحو ١٠٨ فروع ادنى منها منزلة. وهؤلاء الصدرة اكثر عددًا من سائر اللغوف الاربعة العظام وهم بالحقيقة مُجتمع الاهلين وينضمُّون الى نهاية كلّ اللغوف فيضحون نحو تسعة اعشار سكَّان الهند. وهم الذين حصروا فيهم على التقريب جميع اشغال الصنائع والاعمال اليدويَّة

وهذا اللف ينقسم الى فروع وشعب ممتازة لا يفي بها احصاء. ولهم اقسام لا توجد الّا في بعض المقاطعات الهنديَّة او بعض المدن. ففي اقليم تاميل مثلًا ترى لغوفًا لا تجدها في اقليمَي مايسور او دقان منها: مودلّي (اي لغة الرئيس او التاجر العظيم الاعتبار) واكاميادي (اي بَدَنة الهياكل والقصور) ونتّامان (اي لغة الفلاحين) وتوتيار (اي العملة) واوديّاك (اي النخّارون) وقاليين (اي الصيّادون) الى غير ذلك من التشعُّبات العديدة

فترى من ثمَّ انَّ لغوف الصدرة يقومون بجميع الاشغال الضروريَّة للجماعات المتمدنة

منهم البستانيون والرعاة والحاكة والصاغة والحدادون وصنعة العامل والمدنون والزياتون والحلاقون والغسالون. الا انّ الزراعين منهم معدودون في مرتبة اعلى من سواهم كأنّ فنّ الزراعة يخوّلهم شرفًا و يرفعهم على بقيّة لفوف الصدرة السابق ذكرهم. وعليهِ فانك ترى الفلاّح من الصدرة ينظر الى المحترفين بنير حرفتهِ بعين الاحتقار فيعتبرهم ادنى منزلة منهُ ويأبى مؤاكلتهم

ومن هؤلاء الصدرة لفٌ يعرف بالنرسيين لا تجدهم في غير قطر ترانكور يبيحون باشتراك النساء. وفي اقليم تارانا من لا يجيز ذلك الا بين الاقارب وهم يُدعون توتيارس. ومنهم قوم يسمون تامبوري يزوجون بناتهم قبل سنّ البلوغ ويعدّون عارًا للفتاة ان تموت قبل الزواج

ومنهم لفٌ اسمهُ الكلوُرس مهنتهم السرقة يولَعون بالنهب والسلب لا يخجلون من ذلك ويدّعون انّ عملهم حقّ شرعي ورثوهُ من اسلافهم ابًا عن جدّ وهم يسكنون في اقليم مارانا ويطوفون في ضواحيهِ ويقتنصون حيواناته. وحكّام هذا القطر يعالجون الكلوُرس في سوء عملهم ويجلُون حرفة السارق ولا يرون فيها من الشين. والعار ما يراهُ غيرهم من البشر. وليس لهم حجّة لتذكية انفسهم في ذلك الا كونهم تعلّموا السرقة من اجدادهم فصارت بالتسلسل عملًا مباحًا ولم يعودوا يستحيون منها. واذا سُئل احدهم عن حالتهِ وشعبهِ اجاب: اني سارق ومن لفّ الكلوُرس. وهذا اللفّ شهير بين الصدرة واكثر انتشارهم في انحاء مامورا

ويوجد في اقليم مايسور لفٌ يُدعى « مورسا اوكالا ما كلو » لهم شريعة غريبة وهي انهُ يتحتّم على الام اذا دفعت ابنتها الكبرى للزواج ان تقطع ابهامها وسبّابتها وخنصر يدها اليمنى. واذا كانت الام ميتةً لزمت السُنّة امّ العريس. واذا كانت هذه ايضًا متوفّاة وجبَ الامر على الام الادنى قرابةً من العريس او العروس

وفضلًا عن ذلك ترى في انحاء أخر عوائد ذميمة شائعة بين الصدرة لا تقلُّ خرافةً وجنونًا عمّا سبق ذكرهُ. بل لا تكاد تجد لفًا منهم لم يشتهر ببعض الامور الغريبة والاحتفالات الخاصّة والسنن المستقبحة التي يتمسكون بها ويتوثقون بعراها. ولهم جميعًا تسنُّ عليهم مثل هذه السُنن في اطوار حياتهم ومعاهداتهم المدنية ويفرضون عليهم فرائض بخصوص تقاطيع ثيابهم وألوانها وكيفيّة لبسها وصوغ حليّهم ونوع تزيين

اجسادهم بها. فمنهم من يمتاز بحفلات الاعراس والجنازات ومنهم من يتفرّد بالازياء الخاصّة ونشر الاعلام المعلمة والرايات الملوّنة لا يحسنها سواهم. ومهما ظهرت هذه العوائد والسُّنن والحفلات مضحكةً لا ترى اللفوف الاخرى تشمئزّ منها او تحتقرها. والشريعة تفسح لكل واحد ان يتبع في ذلك اهواءهُ دون مانع وعائق بشرط ان لا تخلّ بقواعد الآداب. ولا حقّ ان يعترض لفٌ على لفّ في مثل هذه الامور او ينتقد هذه الاعمال على اصحابها ولو ناقضت رأسًا اعمالهُ وعوائدهُ الخاصّة

على ان بعض هذه العوائد التي يجري عليها لفوف الهنود اذا اعتبرها المنصف وجدها بحقّة بسنن الاداب لا يرى ذو البصر النقّاد وجهًا لعذرها ولذلك أصون قلمي عن ذكرها لما في وصفها من العثرة للطباع السليمة

امّا المسكرات والمشروبات الكحوليّة التي لا يستحلّ شربها عقلاء الهند قاطبة فانّها مباحة لساكني جهات الهند الشرقيّة وغاباتها الفسيحة وللصدرة. فتراهم يعاقرون الخمرة ويكرعون جهارًا العرق والبرندي الانكليزي وعصير النخل المعروف عندهم بالتُّدي. ولسكّان هذه الانحاء خمّارون يقصدونهم كلّ يوم بالمدام قدر حاجتهم فيأخذون منهم اجرة خدمتهم في اوان الحصاد قدرًا معلومًا من البرّ. وهذه المشروبات محظورة على براهمة تلك الانحاء. يبسلهم قومهم اذا جنوا هذه الجناية فيحرمونهم ويرذلونهم من جماعتهم الّا انهم يستبدلون شرب المسكرات بالافيون وان كان استعمالهُ محظورًا في غيرها من الاقطار فيعدُّون ذلك اخفّ جرمًا

ومن لهُ خبرة في احوال الهند وبحث عن عوائدها ومستنقعات بطائحها يرى انّ استعمال شيء من المشروبات الروحيّة والافيون ضروري لحفظ الصحة وصون الجسم من الاوبئة والعفن المستولي على تلك الاصقاع الّا انّ اهل الهند غير الذين سبق ذكرهم لا يحترمون شريعتهم في ذلك ولو ادّت بهم الى التلف لانّهم يعدُّون هذه الشريعة من اشرف شرائع التمدُّن الهندي

وللفوف الصدرة الذين يسكنون في اعالي جبال كارنتيك عادةٌ غريبة مستهجنة فانهم رجالًا ونساء يقضون حياتهم في حالة قذرة لا يغسلون ثيابهم البتة واذا لبسوا الثوب لا ينزعونهُ عنهم حتى يصير اسمالًا وهم يلبسون هذه الثياب ليلًا ونهارًا وقد اعتادت نساؤهم مسح ايديهن بها فيعلوها القذر وتنبعث منها الروائح الكريهة.

والعجيب في ذلك انهم يرعون هذه العادة السيئة تديناً وعبادةً واذا حملت الجارة احدهم على غسل ثيابه المتدنّر بها قضت عليه الشريعة بالحرم والنبذ من اللف . وسبب هذه العادة المسجيَّة قلة الماء في تلك الانحاء لانهُ لا يوجد في ذلك الاقليم الّا غدران قليلة راكدة المياه فاذا أُبيح لهم غسل الثياب فيها فسدت للحال وانتنت

هذا وفي بعض فرقهم عوائد أخرى دينيَّة مكانيَّة منها انَّ في جهات مايسور يكرّم الهنود يوم الاثنين من كل اسبوع كما يكرّم المسيحيون يوم الاحد . فلا يحلّ للقرويين في ذلك اليوم ان يزاولوا الاشغال الاعتياديَّة لاسيما الفلاحة واستخدام الثيران والبقر وذلك اكراماً للبقرة « باسافا » احدى آلهاتهم الخاصَّة التي يعبدونها . وعليهِ فانَّ الاثنين هو يوم راحة لمواشيهم اكثر منهُ لنفوسهم

واكرام البقرة شائع في الهند في الانحاء التي كثر فيها تبعة الالهة بيشا المعروفين باللنكايت وهم يبالغون في حفاوة البقر ويجلّون عبادتها ويسعون في نشر اكرامها بين غيرهم من اللغوف الهنديَّة

ومن عادات الهنود الثابتة انَّ الأُسر الشريفة منهم لا يقترنون بالزواج مع العشائر التي ليست من اصلهم ولذلك تراهم لا يزوّجون اولادهم الّا في الطبقات التي تناسلت منهم وكلّما كانت القرابة بينهم أدنى كان عقد الزواج اسهل . فالايمُ من الرجال لهُ ان يقترن باخت امرأتهِ المتوفّاة وهكذا العم بابنة اختهِ وابن العم البكر بابنة عمتهِ البكر وهؤلاء كلهم لهم حقّ وثيق بالاقتران فيما بينهم وليست حجّتهم في ذلك الّا داعي القرابة واذا ارادوا امكنهم ان يمنعوا ايًّا كان عن مزاحمتهم ويطالبوه بحقوقهم ولو كانوا طاعنين في السن عاجزين عن الزواج او مبتلين بالمرض او الفقر . ولهم في هذه الامتيازات طرائق عجيبة يُضحك منها لا حاجة الى ذكرها

ولحرصهم على هذه الامتيازات ترى البراهمة بالهند يبحثون بحثاً مدققاً في معرفة ما يدعونهُ « كوترام » وهو الاصل الذي عنهُ خرجوا منهُ ويجدُّون في الوقوف على « الموني » اي العابد الذي منهُ تناسلوا لئلا يصيب زواجهم خلل في اختلاط النسب

اما الهنود الذين لا يجدون في اقاربهم المخصوصين زواجاً يناسبهم فيتحتَّم عليهم ان يعقدوا النكاح مع بني لغتهم وان كانوا من فرع آخر ولكن لا يُباح لهم لن يتزوّجوا مع الغرباء الذين ليسوا من لغتهم في اي حال كانت . بل لا يجوز لمن ينتمي الى احد

اللفوف في اقليم ما ان يعقد زواجاً مع فرع آخر من لفّه اذا كان في ايالة اخرى . مثال ذلك انّ لفّ اليديار التاميلي لا يقترن بالزواج مع البيلا التاميلي ولو كان اصلها واحداً

على انّ اشهر اللفوف الاربعة في الهند كما سبق القول هو لفّ البراهمة ودونهم الكشاتريّة او الراجا ثمّ الوَسْية او التجار ثمّ الصدرة او الفلاحون . وهذه اللفوف لا تزال في جدال عنيف لتبيّن ايها الاعرق في الشرف فتحقّ لهُ الرئاسة على غيره . والظاهر انّ اللفين الاولين قد فقدا تقدّمهما اللهمّ الّا في الكتب القديمة التي تجعل اسماءهما قبل الصدرة . اما الصدرة فيعتبرون انفسهم في عيشتهم الخارجة اقدم من لفّ الوَسْية وارفع مقاماً

وممّا ذكرهُ الكتبة عن شعب الوَسْية انّ نساءهم قبيحات المنظر ليس بينهم امرأة جميلة . وهذا امرٌ مستغيض لم احقّقهُ بنفسي لكنّ نساء الوَسْية غنيّات يعوّضن عن جمالهنّ بالاصفر الرنّان

اما البراهمة فبعض اللفوف لا يعتدّونهم في طبقة عليا من الشرف فالپنجالا مثلاً وهو لفّ كبير يأبون الاقرار برئاسة البراهمة وينظرون اليهم بعين الاحتقار وان كانوا هم ايضاً معدودين بين طبقات الصدرة الدنيّة

هذا وليس بامر سهل ان نعيّن النظام والترتيب بين اللفوف الثانويّة فترى بعضها معتبراً في اقليم ومحتقراً في اقليم آخر على حسب ثروة اصحابها وتقلّدهم المناصب والرتب وعظم شأنهم . واذا حُكم في اقليم رجل من احد اللفوف صار لفّهُ معتبراً ولو كان دنيّاً من وجه آخر

ويجمل القول انّ اللفوف التي تُعدّ اشرف من سواها هي التي اتخذت الاغتسال ديدنًا واكثرت من التوضّآت الشرعيّة وامتنعت عن اكل الحيوانات وحافظت على قوانين الزيجة ونظاماتها المرعيّة حفظاً مدقّقاً واقتصّت من النساء اذا خرقن سُنن الآداب فحجرت عليهنّ حجراً شديداً . وكذلك تُعتبرُ اللفوف شريفةً اذا ما اعتصمت بعاداتها الجدّيّة الخاصّة وبرت على امتيازات فرقتها وداومت عليها بثبات متواصل

اما البراهمة فيتظاهرون اكثر من سواهم بحفظ هذه السنن الإرثيّة ويبالغون في الطهارة الخارجيّة ويواظبون على الاستحمام المتداوم ويمتنعون عن اكل اللحم ويحملهم رياؤهم على نبذ ما كان لهُ مبدأ الحياة حتى انهم يعدّون غلّات الارض نفسها نجسة قذرة

حسبما تسوقهم الى ذلك اغراضهم الشخصيَّة وتعلّمهم اعتقاداتهم الباطلة. وما يريدون بكل ذلك سوى اعتبار القوم والسيطرة على بقية اللغوف

ثمَّ انَّ للهنود فضلاً عن تقسيم اللغوف تقسيماً آخر يختلف على اختلاف الشيع الدينية. واكبر شيعةٍ عندهم شيعة سيثا وشيعة وشنو وهما تنقسمان الى شيع كثيرة العدد

وبعض هؤلاء يمتازون بعلامات موسومة على جباههم او على اماكن اخرى من تقاطيع اجسامهم على هيئات شتى. ومنهم كثيرون يتنكّبون حبلاً رفيعاً يجعلونهُ على كتفهم الايسر ويوصلونهُ بابطهم الايمن وهذا امرٌ شائع في لغ البراهمة والكشتارية والوَنسية والبانجالا حتى انهُ يتعذَّر تمييز بعضهم عن بعض

ومن التقاسيم الشائعة اليوم بين لغوف اهل الهند الحزبان الشهيران بالحزب الايمن والحزب الايسر. يُقسم اليهما سكَّان الهند الجنوبيَّة ولا ترى لهما اثرًا في الهند الشمالية ويغلب على ظني انَّ هذين الحزبين حديثا الوجود لم ينتشرا في جنوبي الهند الَّا من عهد قريب والدليل على ذلك انك لا تجد في كتب الهنود ما يشير اليهما. ولعلَّ اصحاب الفتن وذوي الغايات فرَّقوا كلمة الاهلين ودسّوا بينهم الشحناء والتباغض حتى اتسع الخرق بينهم واستشرى الفساد فعمَّ كلَّ الهند الشرقية وصار اغلب القوم من احد هذين الحزبين. فالحزب الايمن يشتمل على لغ الوَنسية والبانجالا وبعض لغوف الصدرة السافلة وكثير من التجار والعملة لاسيَّما عملة الجلود الذين يُعتبرون كاقوى سند لهذا الحزب ولذلك يفتخرون باسم « انصار الحزب الايمن ». اما الحزب الايسر فيضمُّ لغوف الصدرة العليا والبيريا

والحقّ يقال انَّ الفتن متواصلة بين هذين الحزبين فهما لا يكفَّان عن المشاجرات والخصام ويذكيان نيران المشاحنة والثورة حتى انَّ كثيرًا ما تُفضي هذه المنازعات الى سفك الدماء. ومن اعتبر دواعي هذه الفتن لا يرى في الغالب الَّا بعض الامتيازات الطفيفة يدَّعيها حزبٌ على آخر فتضطرم لذلك بينهم جذوة الحقد والبغضاء وترى الهندي الذي طُبع على الجبن والفشل يصبح اذ ذاك شهماً باسلاً يعدو الى الموت عن طيبة خاطر ويعدّ فقد الحياة اشهى اليهِ من الصبر على ارتفاع خصمهِ. وربَّما تفاقم الامر وبلغ الى حالة من الحدَّة لا تستطيع جنود الحكومة من تلافيهِ الَّا بعد الجهد الجهيد

واطلاق المدافع على القوم . غير انَّ القوَّة الجبريَّة لا تشفي ادواء القلوب واذا استتبَّ الصلح زمنًا يسيرًا فيبقى وميض النار كمينًا تحت الرماد يستثير دفينَهُ ادنى الاسباب. فلعمري لقد ساء من رأى للهند تقدُّمًا في حكمتها ودينها ولو عاين ما ينجم عن هذه اللفوف والطبقات المتباينة من الشرور المتفاقة لما تردَّد في تقريع حكمائها الاقدمين الذين زرعوا الريح فجنى ابناؤهم الزوبعة. فهيهات بين هذا التمدُّن الهندي ونتائجهِ الوخيمة وبين التمدن المسيحي المبني على روح التواضع والسلم الذي ألَّف القلوب وجمع الامم في الحب والمساواة فلم يبقَ بين اصحابهِ كما قال الرسول (كولوسي ٣: ١١) : « لا يوناني ولا يهودي . . ولا عبد ولا حرّ بل المسيح هو كلّ شيء وفي الجميع »

في اعمار الاباء الاوَّلين

بقلم حضرة الاب الفاضل الخوري يوسف الدلم

ما زال البعض يسألون عن أعمار الآباء الأولين كآدم واولادهِ ان كانت مدَّتها كما ذكرها موسى الكليم عليهِ السلام في سفر التكوين والبعض الآخر لا يخجلون من تخطئتهِ او تأويل كلامهِ الى خلاف معناه بزعمهم انَّ السنة التي ذكرها لم تكن الَّا مدَّة وجيزة عبارة عن شهر ثلاثين يومًا تقريبًا محتجّين بانهم لا يرون الآن من يعيش تلك السنين الطوال التي عاشها اولئك الآباء وان ذلك مخالف للسادئ الطبيَّة . فطلب اليَّ بعض الاصحاب جوابًا شافيًا على ذلك بحيث لا يبقى بعدهُ مجال للسؤال والاعتراض فمن ثمَّ رأيت اجابةً للطلب ان أبسط البيِّنات الدامغة على صحة كلام موسى وسلامة تعبيره من تأويلهِ الى خلاف معناهُ

فاقول (اولًا) انَّ موسى الذي ذكر ان آدم مثلًا عاش تسعمائة وثلاثين سنة وشيثًا عاش تسعمائة واثنتي عشر سنة وأنوش عاش تسعمائة وخمس سنين الى غيرهم من اولئك الآباء قد اراد بالسنة اثنى عشر شهرًا وبالشهر ثلاثين يومًا نظير حسابنا الآن. لانهُ بعد ان ذكر اعمار اولئك الآباء في الفصل الخامس من سفر التكوين اتى في الفصل السابع وما بعدهُ من السفر المذكور على ذكر الطوفان وهناك ابان عن عدد ايام السنة والشهر فقال (تك ٧: ١١—١٢ و ٨: ٤—١٣):